الحياة العقلية فى الإمبراطورية العثمانية وفى مصر

فى القرن التاسع عشر

للكاتب الألمانى (كارل بروكلمان)

ترجمة الأستاذ مبارك إبراهيم

— ١ —

قال الكاتب :

أثبتت نفوس الشعب التركى فى القرن التاسع عشر — وقد كانت تستمسك بالتقاليد — أنها تستعصى على مؤثرات المدنية الغربية ، وذلك فى الجانب الثقافى أكثر منه فى الجانبين السياسى والحربى .

وأول ما بدا من ترخص فى نفوس ذلك الشعب ، وميل إلى ما يجىء به العصر الجديد ، هو إنشاء صحيفة يومية هى صحيفة (تقويم وقائع) . وكان ذلك عام ١٨٣١ ، وسرعان ما تبعتها صحف أخرى تميل إلى ناحية الأدب ، مثل صحيفة « ترجمان أحوال » (١٨٦٠) و « تصويرى أفكار » (١٨٦٢) .

وقد جاءت فترة الإصلاح المعروف « بالتنظيمات » بتبديل فى نظام التعليم . فبينما كانت المدارس الأولية لا وجود لها مطلقاً — إذا استثنينا تلك المدارس التى تقوم بتحفيظ القرآن — وبينما كان التعليم العالى لا يلقاه المرء إلا فى المدارس الدينية ، بينما الأمور تجرى هذا المجرى إذا بإدارة تنشأ خصيصاً لتأليف الكتب المدرسية للمدارس الأولية .

وفى عام ١٨٦١ فتحت أول مدرسة راقية لتعليم البنات . وفى عام ١٨٦٩ أنشئت جامعة ، ولكن عاصفة من القوى الرجعية قد عصفت بها بعد عامين من إنشائها ، ولم يكتب البقاء إلا لاثنتين من كليات تلك الجامعة هما : المعهد الطبى ، ومدرسة الحقوق .

وإلى أواسط القرن التاسع عشر كان « العثمانيون » مستمسكين بالأدب الفارسى متناً وأسلوباً .

وفى فترة إصلاح النظم التعليمية كان جماعة من الشباب الموهوبين قد أرسلوا إلى باريس للتعلم والدرس ، وكان من بينهم « إبراهيم شيناسى » الذى أكبَّ أول أمره على دراسة الأدب الفرنسى ، وبعد أن عاش خمس سنوات فى باريس حيث قيل إنه اشترك فى ثورة عام ١٨٤٨ ، عاد إلى بلاده فعين فى ديوان المعارف ، ولكنه غادره بعد قليل ليعمل فى أول صحيفة غير حكومية ، هى صحيفة « ترجمان أحوال » التى أسست عام ١٨٦٠ .

وفى عام ١٨٦٢ أسس هو صحيفة « تصويرى أفكار » التى لم تزعزعها الأعاصير السياسية حتى جاء « مصطفى كمال » فعطلها عام ١٩٢٥ .

وقد أدى « شيناسى » اللغة التركية خدمات جليلة ؛ وذلك أثناء قيامه بنشاطه الصحفى . فقد خلص تلك اللغة من شوائب التفاخر والتعاظم ، وعاد بها إلى الأبنية البسيطة التى يتخذها الشعب فى تركيب كلامه .

وفى عام ١٨٥٩ نشر « شيناسى » أول ترجمة تركية لمختارات من النثر والشعر الفرنسى ، ونشر إلى جانبها الأصل الفرنسى لكل صحيفة (وكان مجموع الصحائف إحدى عشرة فى كلتا الحالتين) .

وقد أبانت تلك الصحائف للمثقفين من الترك أن الأفكار التى يعرفونها عند المعرفة فى لغتها الأصلية يمكن أن يعبر عنها بلسان قومهم ، ثم كانت تلك الصحائف البداية لأدب زاهر من الترجمات .

أما ملكته الشعرية فلم تكن بالملكة القوية . وكان يقيد نفسه بالأسلوب القديم . ولكنه مع ذلك كان أول من قدم للترك ملهاةً صغيرة سماها « زواج الشاعر » وهى ملهاة عالج فيها مشكلة مكانة المرأة ومنزلتها . وهى المشكلة التى طال البحث فيها منذ ذلك الحين .

وقد وجدت محاولات « شيناسى » أرضاً خصبة . فقد كان الإحساس عاماً بأن الأدب القديم قد ولى زمانه . فتحول المؤلفون من الشباب إلى ناحية التجديد . ودأب « ضياء

باشا » على تنقية اللغة . وذلك فيا ترجمه عن « روسو » و« موليير » .

ولكن أكبر تلاميذ شيناسي شأناً كان « نامق كمال » الذي وكل إليه إدارة صحيفته في عام ١٨٦٤ يوم سافر هو إلى باريس .

وقد أدرك « نامق كمال » أن ليس يكفي أن يصطنع القوم الآراء الفرنسية . بل إن من الواجب أن تعالج الموضوعات الوطنية . وذلك ليبدو أثرها في الشعب . ولكن النشاط السياسي قد وقف حجر عثرة في سبيل الأدب . ذلك أنه لما انضم « نامق كمال » إلى جماعة « تركيا الفتاة » التي أنشأها « ضياء » كان لزاماً عليه أن يهرب معه إلى لندن عام ١٨٦٦ . ولم يستطع العودة إلى بلاده إلا عام ١٨٧١ بعد وفاة الصدر الأعظم « عالي باشا » .

وفي أثناء أعوام الشغب في أواخر حكم السلطان عبد العزيز . وقد كان البلقان كله يغلي كالبركان ، خرج « نامق كمال » على الناس بدرامته « أرض الجدود » أو « سلسترا » .

وهي الدرامة التي مجد فيها استبسال تلك القلعة في صد هجمات الروس . وكان ظهور تلك الرواية عام ١٨٧٤ . ولأول مرة جعل الترك يألفون نظرية « أرض الجدود » مستقلة عن شخص السلطان .

وقد أثارت الرواية عواصف من الحماس الوطني ، حتى لقد ملأت قلوب الحكام بالرعب ، ولذلك فقد منع تمثيلها بعد أن مُثلت مرتين ، ثم نفي الشاعر إلى جزيرة قبرص .

وكذلك كان « عبد الحميد » أقل قدرة على احتمال انتقاداته وسلوكه الوطني ، وميله بخاصة إلى ناحية الشعب ، فأبقاه — وكأنه نفاه نفياً تكريمياً — بعيداً نائياً عن العاصمة ، وأخيراً بعث به والياً (متصرفاً) على جزيرة « ساقس » .

ولكن مؤلفاته قد أبقت على آرائه وساعدت مساعدة كبرى على بلوغ نهضة جماعة تركيا الفتاة هدفها ومرماها .

والمثل الفنية العليا التي كان لزاماً على « نامق كمال » أن يضحي بها في سبيل أهدافه السياسية ، قد حققها تلميذه « عبد الحق حامد » الذي أتيح له أن يخدم بلاده كرجل من رجال السياسة في باريس ولندن وبروكسل ، كما أتيح له بعد سقوط الامبراطورية القديمة أن يفرح ويبتهج بقيام الحكومة الوطنية ، حتى أدركته المنية في الثاني عشر من أبريل عام ١٩٣٧ ، وقد بلغ السادسة والثمانين من عمره .

وقد فتحت رواياته وشعره الغنائي آفاقاً جديدة للأدب التركي ، وهي الروايات والقصائد التي تأثرت إلى حد كبير بالأدب الكلاسيكي الفرنسي وبشكسبير .

ومع ذلك فلم يكن هناك تقصير في بذل الجهود لتوجيه الأدب التركي وجهات شعبية خالصة .

أما النثر التركي الذي لم يخالطه زيف ، والذي تردد بالبقاء بين طبقات الشعب على الرغم من تجاهل الطبقات المثقفة له وتأبيهم بجانبهم عنه ، فقد كان يقوم على خدمته أولئك القصاص الشعبيون (المداحون) ، وذلك بأقاصيصهم المستمدة من حياة الشعب اليومية ، وقد قام « أحمد مدحت » بإدماج هذا اللون من الأقاصيص في بنية الأدب ، إذ كان لديه ثروة من الالتفاتات الدقيقة المستمدة من حقائق الحياة ، وقد بثها في ثنايا « قصصه المسلية » . وإن كان قد استعان إلى حد كبير بمواد من الأدب الفرنسي ...

وفي كتابه « عام في استانبول » أدخل « محمد توفيق » في الأدب التركي لوناً من ألوان الرضا والقناعة . فقد وصف فيه الحياة الساذجة للشعب الذي كان يوماً ما مقيماً في العاصمة ، فجاء بوصف أحاديث النساء المرحات في ليالي الشتاء الطويلة ، كما وصف تهريج المهرجين في القهوات ، والتنزه المتنزهين على شاطئ القرن الذهبي .

أما حسين رحمي فقد عمق النظر في حياة الشعب أكثر من صاحبه ، وهو مدين بتعليمه الذي رفعه إلى منصب مدير المحفوظات بمصلحة الأموال غير المقررة ، لمدارس استانبول الحديثة ، وهو لم يتعلم اللغة الفرنسية أبداً ، وهو كواحد من أبناء الشعب قد أغرم بصفة خاصة بتمجيد الفلاح الأناضولي الذي لم تعلق به ريبة ، ولم يمسسه ضعف ، وهو أمل البلاد ورجاؤها . وقد صور الشعب على حقيقته ، ولم يتردد — في سبيل العلم — في أن يختلط بالشعب اختلاطاً تاماً .

وهو وسابقوه في تشاؤمهم يقلدون الغرب تقليداً وجدانياً . وإن يكونوا قد استمدوا جذور هذا التشاؤم من الظروف المحيطة بهم . وهي لذلك ثابتة الأصول .

أما في ميدان الشعر الغنائي فقد حرر القوم نفوسهم من أغلال الكلاسيكية . فأدخل « محمود أكرم » الأغاني

(البقية على الصفحة التالية)

الاتجاهات الحديثة للأدب الإنجليزي :

مقومات الشعر الانجليزى الحديث

— ٢ —

للدكتور رشاد رشدى

ما أحسب أحداً من الناس يستطيع أن ينكر أن الشاعر فى أى زمان ليس نتاج عصره فحسب ، بل وكل ما سبقه من عصور وكل ما انحدر إليه من تقاليد ، شاعرية على الأقل .

فالشعر الحديث ليس كله (كالأرض الخراب) أعنى Waste land للشاعر (ت . س . اليوت) وهو لا يتعدى النزعات الثلاث العامة التى سنتحدث عنها بعد قليل ، فهو كما سبق أن ذكرت ، متنوع الموضوعات ، متنوع الصياغة ، رغم ما يتميز به من نزعات عامة ، ووسط هذا التنوع تصعب الإجابة على السؤال الذى يسأله أكثر الناس وهو :

ما الذى يجعل الشعر الحديث حديثاً ؟ ! وهؤلاء الذين يعتقدون أن فى استطاعتهم تعريف الشعر الحديث هم فى الواقع ضمن المحقرين له أكثر مما هم ضمن المعجبين به .

فإذا كان من السهل علينا أن نهتدى إلى صفة نصف بها ما نحب ، فإنه من الأسهل دائماً أن نصم ما نكره بوصمة أو أكثر من وصمة ، وكلنا نعرف أننا إذا أحببنا شعر شاعر معين اشتد ميلنا إلى أن نرى فيه من الصفات ما يؤهله لأن يكون صوتاً معبراً عن روح عصره ، أو مرآة صادقة لأغلب تيارات العصر أو آلة فى أيدى قوى عبقرية مجهولة تعبر بها عن انجاهات العصر إن لم تتعد فنقول إنها توجه تيارات العصر نفسه . أما إذا لم يعجبنا شعره فما أسرعنا إلى أن ننسب ما يبدو لنا فيه من معايب إلى شذوذه أو اصطناعه

الشعبية الوطنية فى نطاق الأدب . وقد أعلى من قدرها بإلباسها ثوب الرواية والقصة الشعرية .

وقد بلغ الشاعر « محمد أمين » — وكان أبوه سماكاً — الذروة فى الشعر الغنائى الشعبى . وقد أعانت قصائده على إنجاح حركة « تركيا الفتاة » .

وقد صاحب هذا الطموح الوطنى غيرة بالغة على نقاء اللغة . وقد أوفى على الغاية فى هذه الناحية « سامى فراشيرى » .

وبعد أن نبذت الأساليب القديمة التى تقوم على الصنعة وتحميل الكلمات فوق ما تحتمل . وبعد أن حل محل تلك الأساليب لهجة الشعب الساذجة . بذلت محاولات لتنقية مفردات اللغة مما خالطها من حصى الكلمات الأجنبية : العربية منها والفارسية . تلك الكلمات التى كانت تكتم فى الأدب القديم أنفاس الكلمات التركية وتزدريها .

وقد نشر « أحمد جودت » (المتوفى عام ١٨٨٠) وصاحب الجريدة « إقدام » ذات المكانة المرموقة ، أصل الكتاب الذى ألفه « نفى » . وهو الكتاب الذى أشاد فيه مؤلفه باللغة التركية على حساب النيل من اللغة العربية . وذلك فى بلاط التيموريين فى « هرات » .

وفى الحق أن هناك محاولات قد بذلت حيناً ما لإحلال الكلمات التركية التى طال زمان هجرها محل الكلمات الأجنبية التى سبق لها التوطن . وقد نجحت مساعى أولئك المحاولين الدقيقين على الرغم مما انتاب محاولاتهم من مبالغة ومغالاة .

ولما أوشك حكم عبد الحميد على النهاية كان على الأدب أن يكافح ليجتاز أقسى الصعاب . وإذ كان عبد الحميد يخاف جماعة تركيا الفتاة كخصوم لحكمه الاستبدادى ، فقد كان من أسهل الأمور لدى بطانته — كما أسرف فى اعتزال العالم وهو قابع فى قصر يلدز — أن يثيروا الشكوك حول كل نهضة تقدمية سليمة القصد يقوم بها شعبه ، حتى إن أوجه نشاط أولئك القائمين بالنهضة قد شلت برقابة قد جاوزت كل حدٍّ فى التعسف ، حتى لقد بلغ من شدة تعسفها أن منعت من الظهور ترجمة تاريخ حياة « وليم تل » (البطل السويسرى) ، وحتى لقد بلغ من تعسفها أيضاً أنها لم تكن تطيق استعمال كلمة « الوطن » .

(عن الإنجليزية) مبارك إبراهيم